

الكاتب المصري



يوليو ١٩٤٧

شعبان ١٣٦٦

مجلد ٦ - عدد ٢٢

لسنة الثانية

إجازة

لا أريد تلك الإجازة التي كان القدماء من علمائنا يهدونها إلى تلاميذهم فتكون إذناً لهم بأن ينقلوا عنهم هذا الكتاب أو ذاك ، مما نقلوا عن غيرهم أو أنشأوا من عند أنفسهم ، والتي ظل المحافظون من علمائنا يتلقونها من أساتذتهم ، ويهدونها إلى تلاميذهم ، ولا سيما فيما يتصل بالحديث ، يكتبونها تثراً في أكثر الأحيان ، ويتأقنون فينظمونها شعراً بين حين وحين .

ولا أريد الإجازة التي نشأت عن هذا المعنى القديم ، واستعملت في العصر الحديث ، لتدل على شيء محدث لم يكن مألوفاً فيما مضى من الزمان ، وهو هذا الإذن الرسمي الذي تمنحه الجامعات ، ومعاهد العلم للذين يتخرجون فيها من التلاميذ ، وتبيح لهم به أن يعلموا الأجيال الناشئة ، ما تعلموا من الأجيال الماضية .

لا أريد إجازة الأستاذ القديم لتلميذه القديم ، ولا إجازة التدريس التي تمنحها الجامعات الحديثة للتلاميذ المحدثين ، متأثرة في تسميتها بالجامعات الأوروبية في القرون الوسطى ، أكثر من تأثرها بسنتنا الموروثة وتقليدنا القديم . ولا أريد الإجازة التي تصدر عن الملوك والأمراء وأشباه الملوك والأمراء ، إلى الشعراء والكتاب ، فتمنحهم الجوائز السنوية من الذهب والفضة والجوهر ، ومن الأبل والشاء والطعام والثياب ، وإنما أريد الإجازة بمعناها الشائع إلهديث بين الموظفين من جهة ، وبين الطلاب والتلاميذ نقلاً عن الموظفين من جهة أخرى . فلم نكن أيام الشباب نطلق لفظ الإجازة على ما يتاح

للمعلمين والمتعلمين من أيام الفراغ ، وإنما كنا نسعى ذلك تسمية أخرى يسيرة واضحة قريبة الدلالة ، كنا نسميها « المساحة » .

وكنا نعرف المساحات الطوال حين يقبل فصل الصيف ، وحين يظل شهر رمضان أساتذة الأزهر وتلاميذه أثناء الشتاء ، والمساحات القصار حين تعود الأعياد وتظل المواسم . وكنا نفهم من هذه الكلمة أن النظام الأزهرى أو المدرسى ، يسامح المعلمين والمتعلمين ، ويأذن لهم في أن يستريحوا من جهد الدرس ومشقة الطلب وخشونة الحياة ، وفي أن يعودوا إلى أهلهم في المدن والقرى ، ليجدوا عندهم أياماً فارغة ، تستريح فيها العقول ، وتنمو فيها الأجسام ، وتستمتع فيها النفوس بشئ من الروح والهدوء . وكانت كلمة المساحة هذه تؤدي معناها في قوة ويسر ، لا نكاد ننطق بها حتى نفهم منها الراحة والدعة والحرية والنوم إلى أن يرتفع الضحى ، لا نستيقظ قبل أن ندعى إلى صلاة الفجر لنشهد الصلاة ونسمع الدروس ؛ والنوم إذا زالت الشمس واجتمعنا حول مائدة الغداء وتفرقتنا عنها ، لا نعجل عن ذلك بدرس النحو أو درس البلاغة ؛ والسهر حتى يتقدم الليل فيبلغ نصفه أو يتجاوز النصف ، نسم أثناء ذلك بما يسلى ويلهى ، ولا نشق على أنفسنا بتلك المشكلات العلمية التي كانت تكلفنا ألوان العناء .

ولست أدري كيف عرضنا عن كلمة المساحة تلك السمحة الحلوة التي يمتد بها الصوت ويشارك في النطق بها الحلق واللسان والشفتان ، إلى كلمة الإجازة هذه القصيرة التي اجتمع بعض حروفها على بعض فلا يكاد الصوت يمتد بها ، ولا تكاد النفس تجدد حين يجري بها اللسان شيئاً من راحة أو دعة أو هدوء . وأكبر الظن أن الموظفين هم الذين أدوا هذه الكلمة إلى أبنائهم ، فاصطنعوها ليدلوا بها على أيام الراحة والفراغ ، يرون في اصطناعها شيئاً من ترف ، ويقلدون آباءهم حين يدلون بهذه الكلمة على ما تمنحهم الدولة من أيام الفراغ في كل عام . ومهما يكن من شئ ، فإنى أريد أن أتحدث عن الإجازة بهذا المعنى الذى يستعملها فيه الموظفون والمحدثون من الطلاب والتلاميذ ، وهو هذه الأيام الطوال أو القصار التي تمنح للموظفين والطلاب والتلاميذ ، والتي تمنحنا نحن لأنفسنا حين نكون أحراراً لا من أولئك ولا من هؤلاء ، نرفه فيها على أنفسنا ، ونستريح فيها من عناء الأعمال ، كما يقال .

وواضح أني إنما أتحدث عن هذه الإجازة ؛ لأنني منحت نفسي إجازة أريح فيها وأستريح من هذا العناء الطويل الثقيل الذي أنفقت فيه العام ، فنعبت وأنعبت ، وشقيت وأشقيت ، وأحسست الحاجة إلى أن أريح نفسي من التعب والإتعاب ، ومن الشقاء والإهشاء ، وأريح الناس الذين يتصلون بي من قرب أو بعد أشهراً أو أسابيع ، فلا أفكر فيهم ولا يفكرون في ، ولا أشقى بالكتابة لهم ولا يشقون بالقراءة لي ، ولا أضني نفسي بالاتصال بهم ولا يعضنون أنفسهم بالاتصال بي .

وقد ينحيل إلى كثير جدا من الناس أن معنى الإجازة مختصر فصير كلفظها ، فهي أيام راحة ودعة و فراغ لا أكثر ولا أقل . ولكنهم لو فكروا قليلا لتبينوا أن معنى الإجازة أوسع وأعمق وأطول من لفظها ، وأنه أدق وأشد تعقيداً مما يظنون . ولولم يكن أمامنا إلا هذه الألفاظ الثلاثة نحللها ونستقصى معانيها لنفهم معنى الإجازة ، لكان هذا في نفسه عسيراً شاقاً ، فكيف وأمامنا أشياء أخرى أكثر وأعسر من هذه الألفاظ الثلاثة وكلها يحتاج إلى التحليل ، وكلها يحتاج إلى الاستقصاء !

فلنكتف الآن بهذه الألفاظ الثلاثة لا نستقصى معانيها بل لنلم بهذه المعاني . فالإجازة أيام راحة ، فما عسى أن تكون الراحة ؟ ما موضوعها وما طبيعتها ؟ وما وسائلها وما غايتها ؟

تريد أن تستريح ، فمم تريد أن تستريح ؟ ومن تريد أن تستريح ؟ ألسنت ترى أن الجواب على هذين السؤالين يختلف أشد الاختلاف ويتفاوت بتفاوت الأشخاص وطبائعهم ، وما يمارسون من أعمال ، وما ينعمون أو يشقون به من ألوان الحياة منذ يسفر الصبح إلى أن يتقدم الليل ؟ أما أنا فإذا ذكرت الإجازة وذكرت أنها أيام راحة لي ، وحاولت أن أعرف مم أريد أن أستريح ، فقد يكون أول ما يخطر لي أني أريد أن أستريح من ثلاثة أشياء أشقى بها في مصر شقاء لا يكاد أحد يتصوره أو يقدره : أولها التليفون الذي يصلصل جرسه منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس ، لا ينقطع عن الصلصلة إلا ليستأنفها ، ولا يكف عنها إلا ليعود إليها . وصلصلة جرس التليفون هذه مختلفة متنوعة معقدة ، فيها كثير من العسر ، وفيها كثير من الهم ، وفيها كثير من العناء ، وفيها قليل جداً من النعيم الذي تبتهج له النفوس وتطمئن إليه القلوب . فهذه

صلصلة نستلك من السرير استللا ولما تشرق الشمس ، فاذا قطعها واستمعت إلى هذا الصوت الذى يدعوك من أقصى الحيط ، كما يقول الفرنسيون ، فقد تقع أذنك أو يقع على أذنك صوت لا عهد لك به ولا أرب لك فيه . صوت مخطئ ، أراد أن يهدى إلى غيرك خيراً أو شراً ، وأبى سوء الظن إلا أن يغلط به ، فما زال يلح على أداة التليفون ، وما زال الجرس يصلصل حتى أزعجك عن راحتك وأخرجك من نومك ، واستلك من سريرك . ثم تسمع ثم تنكر ، ثم ترد مغضباً أو غير مغضب ، ثم تضع أداة التليفون كما ينبغى لها أن توضع عنيماً بها أو رفيقاً ، ثم تعود إلى نفسك ، وإذا أنت تجد شيئاً مرّاً بغيضاً يصور الحنق على من أخرجك من نومك الهادئ المطمئن ، وأزعجك عن راحتك واستقرارك ، ويصور خيبة الأمل لأنك لم تجد من وراء هذا كله إلا هباء لا خطر له ولا غناء فيه . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك عن راحتك ويصرفك عن حلم لذيذ ويذود عنك نوماً هنيئاً ، فإذا بلغت أداة التليفون سمعت صوتاً تعرفه فأنبأك فى أكثر الأحيان بما لا تحب وابتدأ لك يوماً منكرًا ؛ لأن الناس يبخلون عادة بما يسر من الأنباء ، وتطيب أنفسهم عن الأنباء السيئة يعجلون بها إليك فى غير أناة ولا رفق ولا استحياء . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك ويثقل عليك ويكلفك من المشقة فنوناً ومن الجهد ألواناً ، حتى إذا سمعت لصوت من دعاك ضقت بالدينا وضافت الدنيا بك ؛ لأنك تجد نفسك بإزاء رجل سخيف يسألك عن شئ سخيف أو يحمل إليك نبأ سخيفاً . وإذا ابتدأت هذه الصلصلة المختلفة المتنوعة فهيئات أن تسكن أو تهدأ أو تقطع ، وإنما هى متصلة ملحة ، حتى تصبح جلجلة لا صلصلة ، وحتى تبغض إليك الحياة والأحياء وما حولك من الأشياء .

ولست أدرى أأحاول بعض الناس أن يقارنوا بين اصطناع التليفون فى مصر واصطناعه فى غيرها من البلاد . ولكن الشئ الذى أحققه هو أن أهل القاهرة خاصة يسرفون على أنفسهم وعلى الناس فى اصطناع التليفون إسرافاً شديداً ، لا يرفق أحد منهم بنفسه ولا يرفق أحد منهم بغيره ، لا يفرقون بين العجلة والريث ولا بين ما ينبغى أن يؤدى من الرسائل فى سرعة وما يمكن أن ينتظر به إلى وقت يقصر أو يطول . والمصريون أصحاب فصاحة ولسن وفيهم غرور وعجب . وهم يحبون أصواتهم ويحبون ألفاظهم ويحبون ما يصدر عنهم من قول أو عمل . وهم إذا بدءوا الحديث لم يعرفوا كيف يفرغون منه . وهم لا يفرقون بين الحديث

الذى يسوقونه إليك وجهاً لوجه والحديث الذى يسوقونه إليك من أقصى الخيط . وهم يؤمنون بأنفسهم وبحقوقهم وبمنافعهم وبجدهم ولعبهم ، ولا يكادون يؤمنون لأحد غيرهم بشئ من ذلك . وهم من أجل ذلك لا يقدرّون أن التليفون أداة عامة قد أنشئت لينتفع بها الناس جميعاً لا لينتفع بها إنسان بعينه دون غيره من سائر الناس . وهم من أجل ذلك لا يقدرّون أن التليفون أداة قصد بها إلى التيسير والسرعة . فلا ينبغى أن تستخدم إلا عند الضرورة الملجئة وإلا أقصر وقت ممكن . وهم من أجل هذا كله يتحدثون بغير حساب ويظيلون فى غير رفق ، لا يعينهم أن يصدوا غيرهم عن التليفون ، ولا يعينهم أن يشقوا عليك مجديتهم الطويل المتصل ، حسبهم أن يقولوا وأن يحسوا أنك تسمع لما يقولون ، وهم لا يرون وجهك حين يردد ، ولا يرون جسمك حين يضطرب ، ولا يرون ماتدفع إليه من حركات الغيظ والضيق ؛ فهم يقولون ويقولون ، وكل شئ يدعوهم إلى القول ، وكل شئ يدعوهم إلى إطالة القول . وكذلك يصلصل التليفون منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس . ولولا أن النوم فرض محتوم على الناس جميعاً لكان التليفون وإلحاح المصريين فى اصطناعه مصدراً خطيراً من مصادر الجنون ، وهو على كل حال مصدر خطير من مصادر اضطراب الأعصاب .

فاذا ذكرت الراحة التى أطمع فيها أو أطمح إليها ، فقد يكون أول شئ أفكر فيه هو صلصلة التليفون . وشئ آخر أفكر فيه إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها ، وهو هذه الزيارات المفاجئة التى تصب عليك صباً بغير حساب وفى غير تقدير وعلى غير إيدان بها وانتظار لها . فأنت متى عنيت من قريب أو بعيد بالحياة العامة فليست ملكاً لنفسك وليست ملكاً لأهلك وليست ملكاً لعمك ؛ وإنما أنت ملك للشعب كله ، يدبر أمرك كما يريد لا كما تريد ، وعلى ما يشتهى لا على ما تحب . وليس بالشئ المهم ولا بالشئ ذى الخطر أن تكون رجلاً مثقلاً بالأعباء التى تتصل بمصلحتك ومصلحة الناس ، أو أن تكون رجلاً محجاً لهذا اللون أو ذاك من ألوان النشاط تريد أن تفرغ له وتعكف عليه ، وإنما المهم كل المهم والخطير كل الخطير هو أن تكون رجلاً سمحاً سهلاً مفتوح الباب مؤدب الخدام ، لا ترد ملأ إن أم ولا تمتنع على زائر إن زار . وقد يكون أظرف شئ فى هذه الخطوب أن يسعى إليك الرجل لم تعرفه قط ولم تتصل أسبابك

بأسبابه ، وليس بينك وبينه ما يدعو إلى اتصال الأسباب ، ولكنه قرأ لك كتاباً أو جزءاً من كتاب أو فصلاً في مجلة أو مقالا في صحيفة أو استمع لبعض أحاديثك في الراديو أو سمع الناس يتحدثون عنك ، فأحب أن يراك وأن يجلس إليك ساعة من نهار أو من ليل ، لم يؤامرك في ذلك ولم يشاورك ، وليس يعنيه أن تكون الساعة ملائمة أو غير ملائمة، وإنما يعنيه أن يراك ويقول لك ويسمع منك ولا عليه بعد ذلك أن يضيع وقتك أو يفسد عملك ، فذلك آخر ما يفكر فيه . والغريب أن الناس الذين يشقون عليك ويكلفونك هذه الألوان من الجهد ولا يحسبون لوقتك ولا لعملك حساباً هم الذين يلحون عليك في أن تكتب في كل يوم مقالا وفي كل أسبوع فصلا وفي كل شهر كتاباً ، فإن لم تفعل فأنت مسرف في الكسل بخيل بالأدب غارق في البخل إلى أذنيك . وإياك أن تجمع لهم فصولا متفرقة وتنشرها في سفر مستقل ، فانهم لا ينتظرون منك ذلك ولا يرضونه لك ولا يرضونه لأنفسهم ، وإنما هم ينتظرون منك أن تقدم إليهم في كل يوم شيئاً جديداً مبتكراً ، وألا تقرهم أثراً من آثارك مرتين مرة في الصحف والمجلات ومرة أخرى في الكتب والأسفار .

هم إذن يضيعون وقتك ويحاسبونك على هذا الوقت الذي أضاعوه ، وهم على ذلك لا يقدرّون أن للجهد الإنساني غاية يقف عندها ، وأن الوقت الضائع لا سبيل إلى استثنائه، وأن الكاتب محتاج إلى أن يقرأ فيكثر القراءة ، وإلى أن يبحث ويحس البحث ، وإلى أن يفكر ويطيل التفكير ، لينتج فيجيد الإنتاج . هم لا يقدرّون ذلك ولا يفترضونه ، وإنما ينتظرون إليك كما ينظر الطفل الساذج إلى أبيه يحسبه قادراً على كل شيء فلا يتردد في أن يطلب إليه كل شيء .

فأى غرابة في أن أذكر هؤلاء الزائرين المفاجئين إذا ذكرت الراحة أو سعت إليها ؛ وشيء ثالث أذكره مغتبطاً به وأفكر فيه مبتهجاً له حين أمتح نفسي إجازة وأتمس شيئاً من راحة ، وهو أني سأقلت وقتاً طويلاً أو قصيراً من الكتابة فيما لا أحب أن أكتب فيه ، ومن العناية بما لا أحب أن أعنى به . والناس لا يقدرّون ما يتعرض له الكاتب من الشر والنكر والشقاء من هذه الناحية . فالكاتب المصرى قادر بطبعه عند المصريين على أن يكتب في كل شيء ، وعلى أن يلم بكل موضوع ، وعلى أن ينتج في كل لحظة من لحظات الليل

والنهار . الناس كلهم محتاجون إلى الراحة إلا هو ؛ فإن الراحة لم تخلق له كما أنه لم يخلق لها ، كما أن التعب لا يمكن أن يجد إليه سبيلا . والناس كلهم ميسرون لما خلقوا له إلا الكاتب فإنه ميسر لكل شئ لأنه خلق لكل شئ . وما ينبغي أن تقول لأصحاب العلم إني صاحب أدب فلا أستبيح لنفسى أن أقدم كتاباً فى العلم ، ولا أن تقول لأصحاب السينما إني لا أعرف من أمر السينما شيئاً فلا أستطيع أن أكتب عما يتصل به اتصالاً قريباً أو بعيداً . لا ينبغي أن تقول شيئاً من ذلك إذا كنت كاتباً ؛ لأنك بحكم صناعتك قادر على أن تكتب فى كل شئ ، وينبغى أن تكتب فى كل شئ . والناس لا يعرفون حين يطلبون إليك المقال أو الفصل أو الحديث أو المقدمة رقفاً ولا ليناً ولا مياسرة ، وأكاد أملى ولا حياء . فهم يطلبون ويطلبون ويلحون ويلحون ، فاذا أعياهم أن يبلغوا منك ما أرادوا توسلوا إليك بمن تحب وتشفعوا إليك بمن لا تملك لشفاعته رداً حتى يبعضوا إليك الكتابة ويكرهوا إليك الأدب ويوشكوا أن يزهدوك فى الحياة .

وربما يتجاوز الأمر هذا الحد إلى حدود أخرى غير معقولة ولا منتظرة . فالناس يعرفون رأيك فى السياسة ، وأن هواك مع هذا الحزب أو ذاك ، ولكنهم لا يترددون فى أن يطلبوا إليك أن تكتب حيث لا تحب أن تكتب . وهم يقولون لك فى ابتسام ساذج : إنا لا نطلب إليك أن تقول غير ماترى ، وإنما نطلب إليك أن تكتب ما تشاء ، أكتب فى الأدب فالأدب فوق السياسة وفوق الأحزاب ، ليس له وطن فأحرى ألا تكون له صحيفة ولا حزب . وكذلك تنفق نهارك معرضاً لهذه المطالب التى لاتنقضى التى لاتعرف الرفق . فاذا ذكرت الصحف اليسيرة العابثة فحدثت عن إلحاحها عليك وتحرشها بك ولا تخشى مبالغة ولا إسرافاً . وأكاد أعتقد أن الله إنما خلق التليفون ليتيح لكاتب الصحف اليسيرة العابثة أن يمطروا عليك وابلا غزيراً من الأسئلة لاينقضى ، وليس بينك وبين محدثك سبب وليس لك أمل فى أن يكون بينك وبينه سبب ، ومع ذلك فيجب أن تستجيب للتليفون إذا صلصل جرسه ، وأن ترد على محدثك بعد أن تسمع سؤاله الغريب ، واعتذر ما شئت أن تعتذر ، فلن تخلص من إلحاحه إلا إذا خرجت عما ينبغى لك من الأدب وحسن المجاملة . وليس من المهم أن يكون لديك من العمل ما هو خليق أن يشغلك عن التليفون وعن الزيارة

وعما يحمل التليفون والزيارة إليك من أسئلة لا رأس لها ولا ذيل ، وإنما المهم أنك رجل قد اصطنع الكتابة واحترف الأدب ، فنزل عن نفسه للشعب أولاً وللصحف والمجلات ثانياً ، وإذا لم يتح له أن يرد على أصحابها ومحرريها فلا أقل من أن يسمع لهم .

ومن طرائف هذا الباب أن أصحاب هذه الصحف ومحرريها قد انتهزوا فرصة حياتنا السياسية في هذه الأيام الأخيرة ، فطاردوا أصحاب السياسة من الوزراء وأشباه الوزراء ومن الرؤساء وأشباه الرؤساء ومن الزعماء وأنصاف الزعماء ، وما زالوا بهم حتى أنزلوهم على حكمهم . فهم يلمون بدورهم إذا أصبحوا ، ويلمون بدورهم إذا أمسوا ، ويلقون عليهم الأسئلة وينتزعون منهم الأجوبة ، وينشرون ذلك في صحفهم متناسين فيه مهالكين عليه . فاذا سعوا إليك أنت أو تحدثوا إليك بالتليفون وأحسوا منك إباء وامتناعاً كبير ذلك عليهم وأنكروا أن يستجيب لهم الباشوات من أعضاء نادى مجد على وأن يمتنع عليهم كاتب لم يبلغ الوزارة وليس يطمع في الوزارة ، ولم تتح له الزعامة وليس يطمع في أن يكون زعيماً . فأى غرابة في أن أفكر في هذا اللون من العناء البغيض الثقيل إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها .

والحياة في مضر منذ أتيت أزمنا السياسية شقاء كلها بالقياس إلى الرجل المثقف إن كان له قلب أو حظ يسير من العناية بالشؤون العامة . فهو يشارك مواطنيه قبل كل شيء فيما يجدون من شقاء وما يداعبون من أمل وما يحتملون من ألم . وهو بعد ذلك حريص على أن يحسن العلم بما يقع حوله من الأحداث وما يلم بالناس حوله من الخطوب ، وبما يكتب وما يقال في تلك الأحداث وهذه الخطوب . وهو إذن مضطر إلى أن يقرأ سخفاً كثيراً ، وإلى أن يسمع سخفاً كثيراً ، وإلى أن يحتمل سخفاً كثيراً ، ليس له من ذلك بد إلا أن يكون رجلاً قد قسا قلبه وغلظت كبده وآثر نفسه بالسلامة والعافية ، واعتزل مواطنيه وازدرى ما يصيبهم من الكوارث والنازلات .

وهو إذا أصبح مضطر إلى أن يتجرع صحفاً أربعاً أو خمساً ، وإذا أمسى مضطر إلى أن يتجرع مثل ذلك ، وإذا دار الأسبوع مضطر إلى أن يتجرع في كل يوم صحيفة أو صحيفتين من هذه الصحف التي تقصد إلى المزاح ولكنها

تمعن بمزاحها في الجد إمعاناً خطيراً في كثير من الأحيان . ثم هو إذا لقي الناس مضطراً إلى أن يسمع منهم ويقول لهم . وويل لعقله وقلبه مما يسمع ! وويل لعقله وقلبه مما يقول ! وهو بفضل هذا كله مصروف عن العمل المنتج والقراءة المتعة والعناية بما يغذو العقول والقلوب ، فهو يبدأ يومه بالسخف ، ويقضى يومه في السخف ، ويختتم يومه بالسخف ، وهو سعيد إذا لم ينغص عليه السخف راحة النوم ولذة الأحلام .

أليس من الطبيعي أن أفكر في هذا كله إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها، وأن أبتسم لهذه الأيام التي يمكن أن أقضيها دون أن أقرأ الصحف مصباحاً ومسيماً ، ودون أن أتحدث إلى الناس أو أسمع أحاديث الناس عن مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة وما يحيط بهما وبنا من الظروف !

كل هذا ولم أذكر العمل الأساسي الذي أقيم حياتي عليه ؛ لأنني لا أجد في هذا العمل جهداً ولا مشقة ولا عناء ، وإنما أجد الجهد والمشقة والعناء في أني مصروف عن هذا العمل على شدة ظمئي إليه وكلفي به، وعلى كثرة دعائه لي وإلحاحه علي . فأنا أشبه الناس بالمسافر الذي يكاد قلبه يتقطع من الظم والماء بين يديه عذب صفو زلال . ولكنه لا يستطيع أن يدنو منه شفثيه ..

فاذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها فإني أذكر راضي النفس مطمئن القلب مبهج الضمير أن هذه الراحة قد تتيح لي شيئاً من هذا التعب الحلو الذي أتحرق كلفاً به وشوقاً إليه . وقد يصدقني القارىء أو لا يصدقني ولكني أعلم أني أنفقت أيام السفينة عاكفاً على قراءة كتاب في حياة عثمان لا صلة بينه وبين الراحة والدعة والفراغ ، وما أعرف أني استمتعت بشيء طول هذا العام كما استمتعت بهذه القراءة التي استطعت أن أفرغ لها دون أن تصرفني عنها صلصلة التليفون أو الزيارة المفاجئة أو الأسئلة التي لا غناء فيها أو قراءة السخف السياسي والمشاركة فيه .

أترى إلى هذا النوع من معاني الراحة كما عرضته عليك في هذه السذاجة التي لا تكلف فيها أنه معنى إضافي مقصور على أو يوشك أن يكون مقصوراً على ؛ فغيري من الناس يذهبون في الراحة غير مذهبي ويبتغون بها غير ما أبتغي ، وينتظرون منها غير ما أنتظر، تتقارب آراؤنا وأهواؤنا في ذلك وتتباعدهم، ولكنها تختلف على كل حال باختلاف أمزجتنا وطبائعنا وآمالنا وما نسعد أو نشقى به من ضروب الحياة .

فاذا ذكرت الدعة فأمرها في ذلك كأمر الراحة يختلف معناها باختلاف طلابها ؛ فليست الدعة عندي ترفاً ولا شيئاً يشبه الترف ، وأكاد أقطع بأني أجد من الترف في دارى بالقاهرة ما لا أجد بل ما لا أجد قريباً منه في أى مكان آخر من الأرض ، وإنما الدعة التى أطمع فيها وأطمح إليها حين أمنح نفسى الإجازة من عام إلى عام هى التخفف من أثقال التكليف التى تفرضها حياتنا اليومية المنظمة ، هى التخلص من العادات المألوفة والنظم المقررة الملحة التى تلقاك إذا خرجت من نومك مع الصبح وأقبلت على طعامك تصيب منه على نحو لا يتغير. أولاً يكاد يتغير ، ثم على ثيابك تلبسها على نحو لا ينبغى أن تحيد عنه قليلا ولا كثيراً ، ثم على مكتبك ثم على مكانك فى هذا المكتب ، ثم على عملك فى هذا المكان ، ثم على مايلم بك من هذه الأحداث المشابهة التى تكاد تتنبأ بها قبل أن تنسل من سريرك ، وتكاد تحدد لها أوقاتها من النهار أو من الليل لا يفاجئك إلا مايكون من صلصلة التليفون وزيارة الزائرين ؛ وأنت مع ذلك قد قدرتها وحسبت لها حسابها ؛ لأنها أصبحت جزءاً من حياتك وقطعة من سيرتك لا سبيل إلى أن تخلص منها أو تتخفف من أثقالها . هذه الحياة المنظمة المضطربة التى تطرد ولكنها لا تخلو مع ذلك من الأمت والاعوجاج والنبوهنا وهناك ، التى تفرض نفسها عليك من أول العام إلى آخره ، قد قدرت نفسها ودقائقها تقديراً مفصلاً دقيقاً مضنياً ، هذه الحياة هى التى تضيق بك أو تضيق بها ، أو تبادلك ضيقاً بضيق حين يتقدم العام وما تزال بك حتى تعجز عن احتمالها ، وما تزال أنت بها حتى تعجز هى عن احتمالك . فاذا بلغ العام آخره أصبحت أنت مجهداً مكدوداً لا تقدر على شئ ، وأصبحت هى فارغة سخيفة لا تصلح لشئ ، وأصبحت الدعة هى هذا الشعور الذى يُلقى فى روعك أنك فارقت هذه الحياة وأنها فارقتك ، وأن كليكما قد تخفف من صاحبه إلى حين . كذلك أفهم الدعة ، وعلى هذا النحو أطمح فيها وأطمع إليها ، ولا على بعد ذلك أن تتقل الأعباء أو تخفف ، وأن يغلظ العيش أو يلين ، إنما قصاراى أن أتخفف من هذا الثقل المفروض الذى لا محيد عنه فى مصر ، وأن أحتمل ثقلا غيره ، قد يكون أشد منه تعنية وإضناء ، ولكنه ثقل آخر يصور حياة أخرى ويتيح للشخصية أن تجد نفسها على نحو ما وهذا يكفى .

فاذا أضفت إلى هذا أن من الجائز أن تتيح لك الأيام أثناء الإجازة متعة

فنية هنا أو هناك فتقرأ كتاباً كان من الممكن ألا تقرأه ، وتقرأ هذا الكتاب رغبة في قراءته لا أداء لواجب ولاوفاء بوعده ولا تاهباً لكتابة فصل ، وتشهد هذه المسرحية أو تلك ، وتسمع للموسيقى هنا أو هناك ، وتلقى هذا الأديب أو ذاك من الذين تسمع عنهم وتقرأ لهم ويحول بعد الشقة بينك وبين لقاءهم — أقول إذا أضفت إلى هذا أن الأيام قد تتيح لك أثناء الراحة شيئاً من هذا المتاع فقد بلغت الدعة أفصاها وانتهت إلى غايتها .

وقد يفهم غيرى من الناس دعوتهم على غير هذا النحو ، بل من المحقق أن لغيرى من الناس صوراً من الدعة لعلها لا تخطر لى على بال ، ولكن هذا كله إنما يدل على ما قدمت آنفاً من أن ألفاظ الراحة والدعة والهدوء تدل على معان أكثر وأعسر وأشد تعقيداً مما نظن . والهدوء ماهو أو ما عسى أن يكون ؟ أهو هذا الهدوء المادى الذى تنعم به حين تستقر فى قرية مطمئنة بعيدة عن المدن وعمما يكون فيها من الضجيج والعجيج ؟ أهو هذا الهدوء المعنوى الذى تنعم به حين تفرغ لنفسك وتخلو إليها وحين تفرغ نفسك لك وتخلو إليك بعد أن يتاح لكما الإفلات من الحياة المنظمة المطردة ؟ أهو مزاج من الهدوء المادى والمعنوى ؟ كل ذلك ممكن ، بل كل ذلك واقع ؛ ولكن الشئ المحقق أنى أجد الهدوء المادى والمعنوى فى كل مكان إلا فى مصر ؛ فقد أراد الله ألا تتيح الحياة لى فى وطننا العزيز الكريم راحة ولا دعة ولا هدوءاً .

والناس يذكرون الفراغ حين يذكرون الإجازة وحين لا يذكرونها أيضاً . وقد يكون من الممكن أن نجد لكلمة الفراغ معنى فى معاجم اللغة ، وأن نجد من النصوص الأدبية فى العصور المختلفة ما يبين لنا عن هذا المعنى فى وضوح وجلاء . بل قد يكون من الممكن أن نجد بين أصحاب الترف والثراء العريض مثلاً قوية صادقة تبين لنا عن معنى الفراغ . أما أنا فأعترف ، مع الحزن أو مع السرور لا أدرى ، أنى لم أجد بعد للفراغ معنى أستطيع أن أحققه . وأكبر الظن أن هذا شئ لن يتاح لى إلى آخر الدهر . إنما يتحقق معنى الفراغ حين تستطيع النفس الانسانية أن تخلص من الحس والشعور والتفكير والتقدير والحكم واللذة والألم واليأس والرجاء ، وهى إذا خلصت من هذا كله فقد اشتمل عليها الموت . أتراها بعد الموت قادرة على أن تحقق معنى الفراغ !

في هذه المعاني كلها وفي معان أخرى كثيرة من أمثالها فكرت حين منحت نفسي إجازة أفضيها خارج القطر كما يقول الموظفون . فالإجازة عندي إذن هي الخروج من حياة إلى حياة ، والتخفف من أثقال لاحتلال أوقات أخرى، والاستعفاء من بعض الواجبات للالتزام واجبات أخرى . فنحن إذن لا نغنى أنفسنا من بعض الالتزام إلا لنفرض عليها التزاماً آخر . ونحن لا نخرج من عمل إلا لندخل في عمل آخر . فالحير إذن في أن نعود بالإجازة إلى معناها اللغوي القديم وهو الانتقال من مكان إلى مكان ، والعبور من أحد شاطئ النهر إلى شاطئه الآخر . وإني لأشهد لقد بدأت إجازتي هذا العام كما بدأتها فيما مضى من الأعوام فلم أشعر إلا بأني انتقلت من جهد إلى جهد ، ومن جد إلى جد ، ومن إلتزام إلى التزام . وإني لأفكر في هذه الأسفار الضخمة التي ملأ بها صاحبي حقيبة ضخمة والتي يجب أن تقرأ لعل قراءتها أن تؤدي إلى شيء يستطيع الناس أن يقرءوه ، إني لأفكر في هذه الكتب الضخمة وفي صلصلة التليفون التي أيقظتني صباح اليوم في باريس كما كانت توقظني كل صباح في القاهرة ، وفي المواعيد التي تطلب إليّ وفي المواعيد التي أعطيها ، فأسال نفسي أحقاً أني قد منحتها إجازة تقضيها خارج القطر؟ نعم ! إن الإجازات التي تمنح للموظفين والعاملين والتي بمنحها نحن لأنفسنا بين حين وحين ، ليست إلا إجازات صغاراً أو قل إنها إجازات بالاستعارة لا بالحقيقة . فأما الإجازة الكبرى ، الإجازة التي يدل لفظها على معناها دلالة لا تتعرض لشك ولا غموض ، فهي تلك التي لا يمنحها الناس للناس ولا يمنحها الناس لأنفسهم ؛ وإنما يمنحها الله للناس حين يريح منهم الحياة وحين يريحهم من الحياة .

ط حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٧